

مادة الرسم فى مداس الوزارة مبرزاً فى فنه، وهو ينظم الشعر عطفياً ملهماً قوى
الديباجة، سليم اللغة جيش بنوازع النفس. حتى إن شعره لتحتار منه المقطوعات
المناسبة. يلحنها الملحنون، ويغنيها المغنون، من أبناء جيله. ويحفظها عن طريق
تسجيلها اسطوانات الحاكي، وهو وسيلة نشر الغناء الكبرى يومئذ، كثيرون من
أبناء ذلك الجيل، وهذا هو الباب الذى نفذ منه شاعرنا إلى مجتمعه، رغم القيود
والسدود لكى يحصل على لقيمة العيش من ناحية، ولكى يشغل مكانها فى
الوسط الفنى من ناحية أخرى، فلم يكن بالأمر الهين يومئذ أن يكون الشاعر ممن
ينظم القصائد، ليقوم بتاجينها أمثل : القصبجى وعبد قطر وأحمد صبرى، ودواد
حسنى، ومحمود صبح، ومحمد هاشم وغيرهم. كما يقوم بأدائها من المغنين أمثال :
نجاة على، وأسمهان، وصالح عبد الحى، وغيرهم كذلك.

ولقد كان هذا الاتجاه نفسه سبباً فى أن يلج شاعرنا باباً آخر من أبواب
الفن، إذ كان التمثيل فى ذلك الوقت يجتاز فترة من أزهر فتراته، وكانت الروايات
التي تعالج مشا كل المجتمع، على طريقة قصص ألف ليلة ونحوها، مما تموج به
مسارح التمثيل يومئذ، ولذلك لم يخل التراث الذى خلفه إسماعيل صبرى من
روايات ألفها لهذا المسرح الشعبي، كروايتى "الشبح" و"بدر البدور" وغيرهما.
وامتدات بالأديب الشاعر هوايته الأدبية فى ناحية التمثيل، فأكمل هذه الهواية

فقد كانت المقدرة الشعرية تقاس بطول نفس الشاعر، ومقدرته على الصبر على النظم، حتى ينتهي الموضوع. ومنها يكن من أمر الموضوع الذي إحتاره لقصيدتيه، وهو موضع واحد ومن أمره حصوبته وتعدد فروعها، مما يفتح امامه افاقا متجددة من الفكر، ومهما يكن من أمر الدافع النفسى الذي دفعه إلى نظم هاتين الملحمتين الكبيرتين، وما صاحبه من صدق في الشعور، أو نقيضه، مما كان السبب فيه هو هذا المعقد الذي يعيش فيه، والحياة المتنافضة التي تضيق الخناق حول عنقه. مهما يكن من أمر كل ذلك-وكل ذلك مدروس دراسة متعمقة واعية، في الكلمة التالية عن "شاعر الكونيات" فإننا ننظر إلى هاتين الملحمتين على أنهما عمل شعر جرىء في عصر شوقى وحافظ وزملائهما.

وكان شوقى وحافظ ومرم ومطران وشعراء الوقت لا يتسابقون إلى شئ تسابقهم إلى تطويل قصائضهم، حتى قصائضهم المعتادة في المناسبة المعتادة. كانت تجرى ابياتها بين الستين المائة من الأبيات، ولم تكن قصائدهم تلك ملاحم وان كانت نمطا تقليديا من القصيدة الربية القديمة لا تختلف عنها في كثير ولا قليل، إلا من حيث الصياغة التي ناسبت روح التعبير العصرية بعض المناسبة وحتى تقسم شوقى قصيدته إلى فقرات متناوبة، ووضع فاصلة بين كل فقرة وأخرى لم يكن بالأمر الجديد فقد سبق إليه كثير من لشعراء القدامى.

على أن وسائل العصر، وقيوده الثقيلة. على ظروف الشاعر الثقيلة، وعلى
 فنه الشعري في وقة معا. لم تتح له من الفرصة ما كان حريا بالاستفادة منه.
 وماكن حريا بأن يجعل من ملحمتيه الكبيرتين عملا شعريا رائعا في الأدب العربي
 الحديث. فلم يكن هناك من الدراسات الأدبية، ولا من المقالات النقدية، ولا من
 المحاولات التحررية، ما كان يمكن الشاعر من أن يسير على الطريق. ولو متلمسا
 له. فيحاول التخلص بعض الشيء من القافية الواحدة. هذه ((النون)) التي تقيده
 طوال السير ألف مرة. وهي في آخر كل بيت قيد ثقيل يضاف إلى ماسبقة من
 القيود. وليس بعجيب لمن يحصي القوافي في مثل هذه القصيدة أن يجد أكثر من
 ثلثها، أو حتى نصفها، مكررا بين حين وآخر. وهذا في وقته مما كان يعد عيبا في
 القصيدة. وهو في نظري الدافع الأول الذي كان حريا بأن يدفع الشاعر إلى
 التحرر من هذا القيد الثقيل، ومحاولة التخلص منه، والإلقاء به جانبا.

هذه ملاحظة على ملحمتي الشاعر الكبيرتين من حيث صياغتهما. وأما من
 حيث مضمونهما، فليس لدى جديد أضيفه، في هذا المجال المحدد، بعد الكلمة
 التالية التي أشرت إليها عن ((شاعر الكونيات)).

وعاش الشاعر في مجتمع كما عاش الشعراء الآخرون، أو لعلّه حاول أن
 يعيش فيه كما عاش الشعراء الآخرون. كان شوقي وحافظ وإخوانها، ينظمون في

أبيات شعر غفلة ابن حواء^{٤٥}

١. يَا ابْنَ حَوَاءٍ كَيْفَ تُلْهِيكَ دُنْيَا
كَ عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ
٢. كَيْفَ تَنْسَى أَنَّ الْإِلَهَ سَمِيعٌ
وَبَصِيرٌ يَرَاكَ فِي كُلِّ آنٍ
٣. كَيْفَ تَنْسَى ذِكْرَ الرَّقِيبِ وَتَمْشِي
فِي ظَلَامٍ مِنْ غَفْلَةِ النَّسِيَانِ
٤. تُنْفِقُ الْعُمَرَ فِي الضَّلَالَةِ تَلْهُوُ
مُسْتَجِيبًا لِدَعْوَةِ الشَّيْطَانِ
٥. زَيَّنْتَ جُنْدَهُ إِلَيْكَ الْمَعَاصِي
فَتَخَبَطْتَ فِي دِيَاحِي الْأَمَانِي
٦. أَنْكَرْتَ نَفْسَكَ الضَّعِيفَةَ فَضُلًّا
لِلرَّقِيبِ الْمُهَيِّمِينَ الرَّحْمَنِ
٧. وَضَلَلْتَ الْهُدَى فَأَعْمَاكَ طَيْشٌ
وَعَرُورًا جَاهَرَتْ بِالْعِصْيَانِ
٨. لَمْ تَرَ النُّورَ وَهُوَ فِي كُلِّ شَيْءٍ
يَتَجَلَّى وَلَسْتَ بِالْوَسْنَانِ
٩. أَيُّهَا الْغَافِلُ الْأَثِيمُ تَدَكَّرْ
قُدْرَةَ الْخَالِقِ الْجَلِيلِ الشَّانِ
١٠. كَيْفَ سَوَّتَ مِنْكَ الْبَنَانَ وَلَمَّا
تَكَ شَيْئًا فِي ذِكْرِيَاتِ الزَّمَانِ
١١. فَأَفَاضْتَ يَدَ الْمُصَوِّرِ حُسْنًا
أَبَدَعْتَهُ بِرَاعَةِ الْإِتْقَانِ
١٢. أَلْبَسْتَكَ التُّعْمَى بِأَحْسَنِ خَلْقٍ
وَحَبَبْتَكَ الْآلَاءِ بِالْإِحْسَانِ
١٣. نُطْفَعُهُ كُنْتَ فِي الضَّلَامِ جَنِينًا
ثُمَّ طِفْلًا مُطَهَّرَ الْأُرْدَانِ
١٤. فَعُلَامًا غَضَّ الشَّبَابِ فِتْيَا
مِنْ رَبِيعِ الْحَيَاةِ فِي رَبِيعَانِ

^{٤٥} احمد كمال زكي، ديوان اسماعيل صبري (بيروت لبنان) ص ٥٠

